

الشابي والزمن

مشروع قراءة في جدلية القطيعة والتواصل من خلال ديوان أغاني الحياة

بقلم: محمد الأزهر باي*

لقد أنجزت هذه المحاولة بدافع القناعة بأهمية مكانة الزمن في ديوان أغاني الحياة ومن منطلق الشعور بأن الخطاب الشعري لدى الشابي مقام بالأساس على ازدواجية في العلاقة بين الشاعر والزمن أي على التواصل والقطيعة تينك العلاقتين المعبرتين في الحقيقة عن صراعات في داخل الشاعر وتناقضات أملت لها حالات نفسية مختلفة.

لم يكن الشابي كما هو معلوم أول من تطرّقوا الى الزمن ولا هو بآخرهم إذ ما انفكّ الإنسان عبر الأعصر يتمثل الزمن مخاطباً واعياً بيده الإسعاد والإشقاء، فكان التراث العربي مفعماً بمواقف تتراوح بين الإكبار والتودّد الى هذا الكائن الموهوم حيناً والازدراء والنفور منه حيناً آخر. فلا يكاد يخلو

* أستاذ بالمعهد الأعلى لأصول الدين.

من تلك المعاني أثر ولاسيما الشعري منه باعتباره أفضل
مسرّح للعواطف. لقد ثار أمرؤ القيس على ليله وناشده الرحيل
قائلا:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل(1)

واعتبر أبو البقاء الرنديّ الشاعر الأندلسي عبر قصيدته في
رثاء الأندلس أن الزمن غشوم مساءاته أضعاف مسرّاته:

هي الأمور كما شاهدها دول

من سرّه زمن ساءته أزمان

وعلى نقيض هذين الشاعرين فقد ارتاح الفرنسي لامرتين
للزمن وظل يستبقيه كما يتراءى من خلال قصيدته البحيرة(2).
وما الشابي إذن إلا أحد أولئك الذين تحاوروا مع الزمن
فنشأت بينهما علاقات قطيعة وتواصل.

1. الشابي والماضي

يقسم الماضي إلى كونيّ وقوميّ وشخصيّ وهو أيضا بعيد
وقريب. أما ما يستوقفنا هنا فهو ذاك الماضي الشخصيّ القريب
الذي عاشه الشاعر ومايزال عالقا بذاكرته ماثلا نصب عينيه.
فشاعرنا لم يحفل بالتاريخ ولم يتعلّق بالماضي التليد تعلّق
جيل شوقي من أفراد المدرسة الكلاسيكية الجديدة أولئك الذين
تغنّوا بالأمجاد الزائلة واستعرضوا مراكز الإشعاع الثقافيّ
كبغداد ودمشق وقرطبة وذكّروا بالأحداث المجسّمة للرقّي
الحضاريّ. لقد عبّر الشابي عن موقفه الراض لتقديس
التراث من خلال محاضرته التي ألقاها سنة 1929 على منبر

الجمعية الخلدونية وعنوانها «الخيال الشعريّ عند العرب»
وفيها رفض الماضي التراتييّ ورمى من ظلّ مرتبطاً به بأنه:

يحيا على رمم القديم المجتوى

كالدود في حمم الرماد الخابي(3)

وشبّهه بالعجوز الذي يقضي يومه في استحضار ذكريات
ماضيه الجميل:

واعبد الأمس واذكر صور الماضي

فدنيا العجوز ذكرى شبابه(4)

لانه مستحضر لماضيه مغيب لحاضره:

والشقيّ الشقيّ في الأرض قلب

يومه ميّت وماضيه حي(5)

والملاحظ أنّ صاحب «أغاني الحياة» قد قصر همّه وصادق
حبّه على ماضيه الشخصيّ القريب فبدأ شديد التعلّق به لا

يبرحه، وجاءت جملة النعوت التي أضفاها عليه تنويهاً به
وتجسيماً لما بينهما من تواشج، ارتبط بعضها بالحواس
وخطب بعضها الآخر في القارئ وجدانه. فماضي الشابي، كما

صوّره(6): جميّل: 5/23 — غضير: 16/150 — زاه:

1/146 — وضاء: 3/170 — سعيد: 10/184 — حلو:

1/90 — عذب: 1/213 — محسود: 4/42 — بعيد:

5/82 — مفقود: 4/74، 12/128 — 8/133 — ميّت:

12/251 — قدسيّ: 3/216 — ساحر(7): (2/160، 252

— معبود: 16/251 — مغنّ: 1/158 — معذب: 4/160

— مبكيّ: 1/178 — 1/179 — مضحوك عليه: 1/233

— عهد شباب: 13/208 — لحظة حب(8): 3/82 — 4 —
فرصة عناق ومضاجعة: 14/156 — دنيا طهارة وسذاجة:
6/217 — أرض حرية(9): 3/170 — عالم سلام(10):
5/23 — فضاء ابتسام: 8/252 — واحة أحلام: 5/168
4/176.

يلوح لنا من خلال تأملنا لهذه اللوحة التي خصّ بها
الشاعر ماضيه مدى التجاوب بينهما، فهما متعايشان في إطار
التواصل إذ كل ما في الماضي حلّ، فحتّى عذابه وإن أوهمنا
بقطيعة فما هو في الحقيقة إلّا ذلك العذاب الذي يورثه الحبّ
فيستعذبه العاشق ويلتذّ بلذعه.

ونلمس أيضا مؤشرا للتناغم بين الشاعر وماضيه عبر سعيه
المتواصل إلى إنشاء علاقة الإضافة بينهما (أمسي - فجرى...).
إنّ أغاني الحياة التي ترنّم بها الشابي لناطقة كلها بمعنى
التواصل بين الشاعر وماضيه، فهو لعمرى في نظره لعالم اللذة
والسعادة والنقاء بحق وكفى.

2. الشابي والحاضر

الحاضر هو حاضر الشاعر ذاته، هو ساعة الانشاء ولحظة
ولادة الكلمة، هو حاضر انتكس له إثر ماضٍ تولّى فبكاه
بدموع الأسى بعد أن بكى منه وتمنّى زواله(11)، لقد شعر
صاحبنا بتفاهة واقعه وانتهى إلى حالة تشبه اليأس ذلك اليأس
الذي أملاه الزوال وأورثه الفناء. وأطبق القبر على ساكنه إلى
الأبد ولم يعد للشاعر من مطمع في البعث بيد أنه لم يفتأ عالقا
بالراحل ملتفتا ذات اليمين وذات الشمال علّه يصادف في

الحاضر مصدر سلوى ومورد نسيان لثكله الميرير فإذا
الحاضر:

وعر: 3/111 — فضّ — شديد: 12/106 — عصيب:
14/53 — حسود: 4/42 — ضيق: 1/173 — مظلّم:
6/25، 11/113، 9/208 — 10 — ملّ: 1/101،
7/109، 13/144، 13/169، 13/186، 1/201 — ثقل:
3/186 — مرهق — مثير: 9/217 — محزن: 1/158 —
مبك: 8/23، 13/208 — 14 — معذب: 6/123 — بلاد
غربة: 2/47 — 13/48، 10/169 — ساحة تيه: 8/112
— 9 — 9/113، 2/168 — مصدر شقاء وبؤس:
2/102، 3/124، 4/151، 10/169 — علّة يأس(12):
4/74، 1/112 — 2 — داع الى تمنّي الموت: 9/169 —
ميدان حرب: 1/257 — زمان عمى: 1/111، 10/113 —
مصدر ظمإ: 3/112، 2/168 — فصل عواصف:
123/562 عالم كابة 9/126، 6/169 — ركح غناء كتيب:
6/169 — سماء حبّ سجين: 1/287 — سحر وشقاء:
15/125 — نقاء وشوب: 11/125 — صباح ولا صباح:
12/125 — رحابة وضيق 13/125 — طرب ووجوم:
14/125.

نستشفّ ممّا كنّا بصده أن الشاعر لم يعد يعيش مع
الحاضر ذلك الدفء والحنان اللذين عرفهما بين أحضان
الماضي. فهو قد ودّعهما وغادر دنيا الفرح والاطمئنان ليحيا
حياة كئيبة مفترشا بساط الحزن ومرتديا ثوب الأسى، ظاهره
الغبطة وباطنه الشجان إنّ التنافر مخيم على علاقة صاحب
«أغاني الحياة» بحاضره والكلّ يشير إلى وجود قطيعة حقيقية

بينهما. إنَّ حاضر الشاعر لم يقف عند تكشير أنيابه له بل تعدَّى ذلك الحدَّ موعلاً في الإساءة إليه بحرمانه هو وإسعاف غيره بخمس فرص على الأقلَّ للتواصل من خلال ما أتاحة لهذا الغير من نقاء وضياء وفسحة وسحر وغناء. نسجَل أيضاً تفاعلاً سلبياً بين الشاعر وحاضره فكلاهما فاعل في الآخر فعلاً هداماً. فهذا الشابي ملَّ حاضره وسخط عليه وذاك الحاضر أغضب شاعرنا وأرهقه وأرقه وعدَّبه وأبكاه وأحزنه وألقى به في بلاد غربة وضياع وكآبة وشقاء وعمى وأسر، وغيب صباحه وزجَّ به في دنيا الشوب والضيق والوجوم، واليأس ودفع به في النهاية الى تمنّي الزوال. ولئن توفر عنصران يوهمان بحضور علاقة تواشج وهما الحبّ والغناء فإن المستكنة لشعر الرجل المستشرف لحقيقته يهتدي لامحالة الى أن الحبَّ في بوتقة الحاضر ليس حبّاً سعيداً مشرقاً يبيت فيه الحبَّ طليقاً بل هو سجن في غياهبه وقع الحبَّ جاثماً على ركبتيه لا يبرح مكانه، وأنَّ الغناء ليس غناء المسرّة بل هو عويل المكتئب ونواح الثاكل يندب حظّه.

نشير أيضاً إلى انعدام الإضافة كأحد مؤشرات الانقصام في العلاقة، فشاعرنا لم يعمد إليها مرّة واحدة في غضون تطرّقه إلى الحاضر وكأننا به يتبرّأ منه ويشنّها عليه شعواء لا تبقي ولا تذر.

3. الشابي والآتي

إنَّ للآتي بعدين يساوي مدى أحدهما عمر الكون كله ويقدر الآخر بعمر الشاعر وهو موضوع اهتمامنا في السياق الراهن

والآتي في «أغاني الحياة» هو الأمل مقابل اليأس الذي كان مستوليا على الشاعر في حاضره. إنه ذلك الأمل الذي كان يحدوه ويوهمه بعودة الروح إلى فقيده أو بأن نبض الحياة لم يزل فيه ممّا جعله تواقًا إلى آت سعيد ذي فضاء أرحب يصبح له تجاوزًا لمأساة حاضر أليم فتمنى لذلك أن يكون آتیه عالم جمال وفنّ وطهر وقداسة يعيش فيه وحيدًا بين أحضان الطبيعة:

عيشة للجمال والفنّ والإلهام والطهر والسنن والسجود(14)
إنّ آتي الشابي هو ذلك الآتي الذي طالما انتظره ولمّا يأتي،
هو آت:

بعيد: 4/113، 1/133 — مجهول: 5/133، 12، 14 -
1/158 — مستراب 6/204 - تتعاش على ركحه جدليّتان
إحداهما جدليّة البعث والفناء أو التجلّي والخفاء والأخرى
جدليّة الديمومة والفناء أو الثابت والمتحوّل.

أ - جدليّة البعث والفناء ينقضي الحاضر لحلول الآتي
وتنتفي رسومه وبالتالي فالولادة موت والوجود عدم وللأيام
صولة تأتي على الأمان ليصبح ما سيّدته عفاء(15). هي أيام
كذوب لعبوب بل:

هي مثل العاهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده(16)
وينتاب الشاعر ضجر وتتملكه حيرة فإذا هو يتساءل عن
سرّ الحياة وما تخفي الليالي:

نحن نمشي وحولنا هذه الأكــوان تمشي ولكن لأية غاية
نحن نتلو رواية الكون للمو

ت ولكن ماذا ختام الرواية(17)

ثم تستحيل الحيرة إلى يأس ظلّ معه الشابي ينشد خوض غمار تجربة ثانية مناقضة للأولى وهي تجربة الموت استناداً إلى إيمانه بالبعث وحياة بعد الموت فيصبح الموت بداية حياة جديدة وهكذا ينتقل فكر الشاعر من الاتجاه الأفقيّ القائل بسير الأحداث سيرا تطوّرياً تقدّمية لا يعرف التراجع إلى الاتجاه الدائريّ المؤمن بعودة الفاتئ، المتبنّي لمقولة إعادة التاريخ لنفسه. يثس الشابي إذن من حاضره وتاق الى الرحيل عن هذه الدنيا:

جفّ سحر الحياة يا قلبي الدا

مي فهيّا نجرب الموت هيّا (18)

طلب الموت علّه يكون له أخفّ من الحياة وقديما قال المتنبي:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش

ربّ عيش أخفّ منه الحمام (19)

سيشهد اتّي الشابي حالات ولادة أو بعث من ناحية وحالات فناء وزوال من ناحية أخرى. فضمن الأولى نشير إلى الربيع: 1/104، 4 — الوشاح: 7/25 — الصباح: 6/25، 1/93، 3/97، 8/115، 14/235 — السلام: 11/36 — الثورة: 4/281 — اليقظة: 3/65، 2/165 — الكلام: 1/92، 2/165 — الحقّ: 3/65، 6 — الجزاء: 5/65 — الأمل: 2/57، 13/150 — القداسة: 15/257 — 16، 5/278 — الموت: 9/136، 3/159، 2/167، 4/272 — السعادة: 7/299 — 8 — الكمال: 1/206 — الخلود:

1/206 — الرفعة: 1/256 — الهوان: 1/241. الفرح:
 7/89 — الغناء: 5/114 11/150 — اللذة: 12/115 —
 الحقيقة: 5/25، 7/49 — 8، 14/53 — الرحمة: 7/89،
 6/114، 5/116 — الوحدة: 8/150 — ذكريات الحب:
 14/96 — إشباع الرغبات: 4/114.

أما حالات الفناء فهي في جلّها وليدة حالات الولادة
 والبعث نذكر منها:

الشتاء: 4/104 — الظلام: 8/115، 6/25، 3/97 —
 الأسى: 8/115 4/104 — البلى: 11/36 — الفصول:
 14/235 — النوم: 3/65 2/165 — الصمت: 3/165 —
 الظلم: 3/65 — أوجاع الحياة: 2/57 — اليأس: 13/150،
 7/299 — الوشاب: 5/278 — الاثم والبغضاء: 5/278
 — الحياة: 3/159، 4/272، 7/299، 2/167 — الشمس:
 3/159 — الشيطان: 3/159 — القمم: 3/159 — الشقاء:
 8/299 — البكاء: 7/299 — الكآبة: 9/48 — 10 —
 الفؤاد: 14/53 — الجروح: 5/116 — العدد (الجماعة):
 8/150 — سحر الهوى: 14/96 — الذكريات: 15/196
 — الشباب: 10/162 — الحسن: 10/162 — الايام:
 1/93، 1/175 — البناء: 2/172.

ب. جدلية الفناء والديمومة

لقد تجلّى ممّا سبق أن أتى الشابي عرف جدلية الولادة
 والفناء أو البعث والفناء ونحاول فيما يلي إبراز طرفي جدلية

ثانية هي جدلية الفناء والديمومة أو الانسحاب والبقاء أو أخيرا التقهقر أمام عسف الزمان والصمود في وجه قانون الحدثان. وقد تطرّقنا في الفقرة الأخيرة إلى عناصر الانسحاب، لذا لن نذكرها ثانية ونشير إذن الى الطرف الثاني المنطوي على عناصر الدوام وهي التالية:

الاكتئاب(20): 9/48. 10 - الحزن: 14/53 - الشقاء(21): 12/217 - الغربية: 13/126 - الذكريات(22): 2/199 - الأفعال: 10/136 - التحدي: 2/257 - 3 - الغناء: 8/257 - 11 - سحر الحياة: 12/235 - جمال الروح: 11/162 - الفؤاد(23): 15/196 - 16.

لئن بدت ملامح العلاقة بين الشاعر وماضيه أو حاضره واضحة مستقرّة فقد باتت مع الآتي متأرجحة تارة بين التواصل والانسجام وطورا بين القطيعة والانفصام. ويتمثل التواصل في أنّ الآتي سيأتي على كثير من مظاهر العسف ومصادر الألم لدى الشاعر ليحلّ محلّها بشائر الرحمة وبواعث الاطمئنان التي كانت فيبقي عليها أو لم تكن فيوجدّها. أمّا القطيعة فمتّصلة بالصبغة الاعدامية لهذا الآتي إذ هو سيذهب بالجمال والحبّ والحياة ويقضي على الكلّ بالرحيل كما إنّه سيتيح لبعض عناصر الشرّ الدوام ليظلّ الإنسان شقيّا أبدا.

والملاحظ أنّ علاقة التواصل تبقى دوما المسيطرة إذ تمثّل 46 حالة من جملة 68 أي نسبة 67٪. ولعله من السائغ إلحاق حالات القطيعة مع الآتي بظروف ذاتية للشاعر وأزمات حادة انتابته فإذا هو فاقد الأمل مغلف القول دونما هوادة.

لقد تجلّى لنا من كلّ ما سلف ذكره في شأن علاقة الشابي

بالزمن أنه لا غبار على علاقته ببعدي الماضي والحاضر فالأولى تواصل والثانية قطيعة مما يفيد وجود هذين البعدين في علاقة تقابل. أما علاقة الشاعر بالآتي فمتراوحة بين هذه وتلك.

واتضح لنا أيضا أن الشاعر قد أسبغ على آتیه كثيرا من نعم الماضي وقليلًا من شوائب الحاضر وبدا ماضي الشاعر وآتیه نورين مشعّين على قلبه وحاضره بينهما ظلمة سحيقة. لهذا قضى صاحبنا حياته عالقا بماض جميل رافضا لحاضر أليم تواقًا إلى آت أفضل، يمتد إلى الماضي ويسراه إلى الآتي وصدره بينهما يتأجج أسى وحسرة.

الهوامش :

- (1) المعلقة، البيت...
- (2) يقول في هذا الصدد: O temps, suspends ton vol! et vous, heures propices, suspendez votre cours!
- (3) أغاني الحياة ص 275 ط. تونس 1970
- (4) أغاني الحياة ص 251.
- (5) أغاني الحياة ص 253.
- (6) يشير الرقم بعد النعت إلى الصفحة والسطر في ديوان أغاني الحياة.
- (7) ينبغي التذكير بما للسحر من أهمية في نظر أعلام الرومنسية وخاصة هوجو إذ يعتبر أن الشاعر ساحر le poete mage وأن السحر من أبرز المميزات التي بها يتفد إلى أعماق الناس ويوجههم إلى حيث يشاء.
- (8) عرف الشاعر في ماضيه حبّ الحياة وحبّ الوالدين وحبّ المرأة وحبّ الآخر عموما ولا غرو وهو القائل:
- لا أحبّ النسيم إلا إذا هبّ على كلّ حاضر أو باد.
- (9) لا يخفى علينا ما للحريّة من ثقل في فلسفة الشابي ذلك أنه كان لاهجا بها دونما انقطاع كمثّل قوله:
- خلقت طليقا كطيف النسيم وحرّا كنور الضحى في سماه
- (10) السلام هو الآخر ضالة شاعرنا الذي ما برح يخوض حربا ضروسا ضدّ

جيش الالم وطفاة العالم وافراد شعب غبي قابع في الذل قانع بالهوان.
(11) هذا يذكرنا بقول احدهم:

رَبُّ يَوْمِ بَكَيْتَ مِنْهُ فَلَمَّا انْقَضَى قَدْ بَكَيْتَ عَلَيْهِ

(12) هو يأس مآتاه رؤية الشاعر كل شيء يواكب سير الزمن وشعبه جامد ثابت في مكانه لا يبرحه وقد قال في هذا المعنى:

كل شيء يسائر الزمن ما
شي بعزم حتى التراب ودوده

كل شيء الآك حيّ عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيدہ

(13) يتعلق الطرف الاول من كل طباق في الحالات الخمس الاخيرة بالغير ويتصل الطرف الثاني بالشاعر.

(14) أغاني الحياة 15/185. انظر ايضا 2/171 - 4 6 - 7 و 4/173 8.

(15) أغاني الحياة 34 / 1 - 4

(16) أغاني الحياة 12/159.

(17) هذا يندرج في سياق تأملي فلسفي عام عرفناه لدى العديد من معاصري الشابي ومنهم ايليا ابوماض. أما امر المصير فسيظلّ طلسمًا لا قبل لامرء بفكه رموزه وهو ما يفيدُه قوله، تعالى: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي ارض تموت..﴾

(18) اغاني الحياة 209/15 - 16.

(19) الديوان ص 164 ط دار صادر بيروت 1384 هـ / 1964 م.

(20) سبق أن رأينا لدى الشبابي أن الحزن يزول بزوال الحاضر وحلول الآتي. انظر أغاني الحياة ص 48، 89، 104، 115.

(21) وأمن الشاعر هنا بديمومة الشقاء، وقد قال بغنائه في سياق غير هذا (8/299)

(22) اعتبر الشابي في سياق آخر أن كل شيء فان بما في ذلك من ذكريات. انظر اغاني الحياة ص 15/196.

(23) قال الشامي قبل هذا بأن فؤاده الى زوال محتوم (53/10). وهو يؤكد هنا بأن فؤاد الحب لن يفنى.